

الناس إلى التصديق ، وعدم تمييزهم ما بين الصحيح وغير الصحيح ولذا فهو يهتم بتنظيم حقائق هذه الحرب حتى يبين الحوادث ؛ وهو بمعنى بنقد حقائقه ويقول : «إنني ما وصفت شيئاً رأيت ، أو سمعته ، ولم أحققه بكل تدقيق وعناية» . ويختلف في صرامه عن هيرودوتس فهو يرمى إلى غرض تعليمي وإلى إعطاء دروس في السياسة حقيقية ولم تهتم حكومة في القديم بتدوين أخبارها مثلما اهتمت الحكومة المصرية . فعنى الملوك والأمراء والعطاء بتسجيل أعمالهم ، وتدوين حوادثهم ، ووصف نواحي حياتهم المختلفة : الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، وحاولوا إعطاء الخلف صورة واضحة عن حياة السلف . وكانت فلسفتهم التاريخية الاستمداد في هذه الحياة الدنيا للحياة الآخرة ، فالحياة الدنيا ليست دار قرار ولا دار عدالة . وكما اهتم المصريون القدماء بتدوين أخبارهم حاولوا تشويه معالم تاريخهم . فكانت هناك محاولات فردية قام بها بعض الملوك لطمس معالم تاريخ من سبقوه . ولكن الحسن الحظ لم تنجح مثل هذه المحاولات نجاحاً تاماً

وقد ظل مظهر القصص والسياسة يغلبان على دراسة التاريخ مدة طويلة في العصر القديم . ومن بعد عهد المؤرخين الرومان من أمثال سالوست Sallust وليثي Levy وما كيتوس Tacitus أصبح التاريخ فرعاً من فروع الأدب وانحطت دراسته . ولقد أغفل المؤرخون القدماء ما نسميه الآن بالتاريخ العام فما كانوا يعتبرون بغير الإغريق والرومان ؛ وما عداهم من الأمم فكانوا «معتبرين» ثم جاءت المسيحية ونمت ، فلم يعد المؤرخون يهتمون بأبناء الوثنية أو بالماضي الوثني ، وإنما اهتموا بالمسيحية ذاتها . وكان للمسيحية فلسفتها التاريخية الخاصة بها ، فحوادث هذا العالم — كما ترى — سائرة وفق نظام إلهي لتمهيد الطريق لظهور المسيح ؛ وعلى فكرة ظهور المسيح يتوقف تاريخ ما قبل المسيح وما بعده ، فبمده تقاسى الإنسانية أنواع العذاب إلى يوم القيامة . وقد وجدت هذه الفلسفة أحسن تعبير لها في كتاب القديس أغسطين «مدينة الله» . وقريب من هذا فلسفة المسلمين التاريخية في المصور الوسطى إذ يرون أن العالم سائر وفق نظام وضعه الله له إلى يوم القيامة ، في ذلك اليوم يجزى الله الذين أساءوا بما حملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسن

أما نظرية التطور والتقدم^(١) فلم تظهر واضحة في المصور

(١) لتاريخ نظرية التقدم في التاريخ انظر : Bury : The Idea of

تاريخ التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

كان التاريخ أول أمره قصصاً يختار القصص من أنبائه ما يهزم وما يستثير إعجاب الجمهور، وكان يدور حول حوادث الآلهة والأبطال فكان عند اليونان مصوغاً شعراً قصصياً يرتل وينشد ، شعراً يتغنى بمجد اليونان ، ويشيد بما كان لأبطالهم من بلاء في الحروب ؛ وأول أثر تاريخي وصلنا في ذلك القالب شعر «هوميروس» ومثل ذلك كان موجوداً عند الشعوب التي لم تبلغ بعد حفظاً من الحضارة ، تاريخها قصص يتناقله الرواة ومركزه الأبطال . ظهر ذلك عند العرب في الجاهلية ، وعند الترك قبل دخولهم المسيحية ، وعند الفرس القدماء وغيرهم . ويطلب في ذلك النوع من التاريخ الأسطورة أو الأخبار ، لأن المنصر الشخصي ظاهر فيه من ناحية الشاعر والناقل والقاص ، فكل منهم ينتق ما راقه — في القالب — دون نقد أو تفكير ، ثم يضيف إليه ما يضيف ، أو ينقص منه ما شاء أن ينقص . فأمثال هوميروس ينسبون إلى أبطالهم وأهملهم ما شاءوا من أعمال لا يستطيع العقل تصديقها ، وسبغ بهم الوهم والخيال ... ولم يخف ذلك على بعض عقلاء اليونان من أمثال «إزوكراتيس Isokrates» الذي يقول : «فلم ينسبوا إليهم — أي إلى الآلهة والأبطال — الوقوع في أسر من يموت ويفنى ، ولكنهم يمثلونهم آكلين أطفالهم ، معذنين آباءهم ، ومقرنين أمهاتهم في الأصفاة»^(١) . وأول من اهتم بالتاريخ وبذل جهداً للوصول إلى الحقيقة هو «هيرودوتس» : فيسافر لجمع الأخبار بنفسه ، ويهتم بالناحية الجغرافية في دراسته ، ويعرض الآراء المختلفة أمام جبهة قارئيه أو سامعيه ليختاروا منها ما شاءوا . ولكن هيرودتس كان قبل كل شيء قاصاً أخبارياً ، يجمع ما له قيمة في نظره وما يلد جمهوره فهو في الواقع أب المؤرخين القاصين الأخباريين

وتمت المرحلة الثانية في البحث التاريخي على يد ثيو كيديدز Thucydides مؤرخ حرب البليونيز — انتقد ذلك الرجل سرعة

(١) Freeman and Rendall : Schools of Hellas ص ٢٢٠، ٢٢١

العالم الإغريقي والروماني القديم، وكان في نظرهم خادماً للأدب، ولما قامت حركة الإصلاح الديني زادت أهمية التاريخ إذ وجد فيه المصلحون أسلحة قوية ضد ادعاءات البابا؛ واهتم به المفكرون الاجتماعيون لأنه يفسر في نظرهم نظرية التقدم والنمو. فلا عجب إذا عنى المؤرخون بجمع الوثائق وتنظيمها. والاهتمام بالعوامل الجغرافية في دراسة التاريخ

ولقد جاء منتسكيو وقتلير وقالوا بقيمة العوامل الطبيعية في تسيير التاريخ « فليست الصدق هي التي تحكم العالم في نظر منتسكيو^(١)، فالظواهر السياسية كالظواهر الطبيعية لها قوانينها العامة » ويرى أن الأخلاق تعمل على رفع الشعوب وأن العوامل الجغرافية والناحية تؤثر في مجرى الحياة الإنسانية. أما وقتلير فقد اهتم بتاريخ الشعوب ففي كتابه « عصر لوى الرابع عشر » أعلن أن غايته ليست وصفاً لعمل فرد وإنما لقتل الأفراد وللروح التي تسيطر عليهم. ولقد نحا نحوها الطبيعيون أو الفيزيوقراط وقالوا إن الإنسانية ولو أنها ترتكب كثيراً من الأخطاء إلا أنها سائرة في طريق التقدم، وأن الناس يعملون بوحى قوانين إلهية لا يستطيعون النكول عنها، هذه القوانين ترى إلى صالح الفرد وإلى صالح الجماعة وكان للشورة الفرنسية فلسفتها التاريخية، فكوندرسيه يرى أن التاريخ يوضح نظرية التقدم ويساعد على تمييز اتجاهها في المستقبل، وحوادث التاريخ في اعتقاده تدل على أن الطبيعة لم تضع حداً لنمو الإنسان، وأن رقيه نحو الكمال رهين ببقاء العالم، وأن تقدم الإنسان بطيء تارة ومرجع تارة أخرى، ويستطيع الإنسان التكهن بالحوادث إذا عرف القوانين العامة للظواهر الاجتماعية، ويمكن معرفة هذه الظواهر من دراسة التاريخ

ومن القرن الثامن عشر لم يعد الاهتمام التاريخي مقصوراً على دراسة الأشخاص والشعوب، بل أخذ يمتد إلى دراسة الحضارة أو ما يسميه الألمان Kulturgeschichte. وقد زاد الاهتمام بدراسة التاريخ في القرن التاسع عشر على يد نيبور Niebuhr رانكه Ranke المؤسس للمدرسة التاريخية الحديثة، فزادت العناية بالرجوع إلى المصادر الأصلية للتاريخ وإلى دراسة نواحيه المختلفة وامتد نفوذ هذه المدرسة إلى بقية أجزاء أوروبا وأمريكا.

(البقية في العدد القادم)

محمد مصطفى صفوت

الوسطى، وإن كانت مبادئها قد وضعت في الماضي الإغريقي. لأن الفكرة المنتشرة في أوروبا في هذه العصور كانت فكرة الخطيئة الأولى، خطيئة آدم وحواء وليس هناك مجال للتقدم والتحسين. ويغلب على التاريخ في ذلك الوقت نوع الجوليات، يضعه في الغالب رجال الدين الذين يهتمون بانتقاء المعجز والغريب من الأخبار، وربما كان خير مثل لهؤلاء جريجورى التورى. أما في الشرق عند المسلمين فكانت الحالة قريبة الشبه فكان الاهتمام « بالقتل » هو الظاهرة البارزة، وكانت النزعة الدينية غالبية، أما روح النقد الحقيقي كما نعرفه في الوقت الحاضر فما كانت موجودة إلا عند القليل سادت فكرة تفوق القديم بصفة عامة في العصور الوسطى، بل كانت سيطرة على عقول عدد كبير من رجال النهضة. فكانوا يمتقنون في تفوق الإغريقي والرومان فهم أرباب العلم والأدب والفن فأرسلوا إليه هو درجة الكمال لا يمكن الزيادة عليه. ولكنه بالرغم من ذلك بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة في عصر النهضة نفسه. فكميافلي لا يرى الإنسانية سائرة في طريق التمهقر — بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة عندما أخذ الإنسان يشعر بأنه حر الإرادة يستطيع تحديد مستقبله إلى حد كبير. فبودن Bodin وهو من أعلام المؤرخين يرى أن التاريخ يعتمد على مشيئة الإنسان، ففي كل وقت تظهر قوانين وعادات وتظم جديدة كلها من صنع الإنسان، ويلاحظ قانوناً عاماً هو أنه ليس هناك انحطاط مستمر بل رقى تدريجي.

نشبت إذن معركة بين القدامى والمحدثين، بين الذين يقولون بتفوق الماضي والذين يقولون بتفوق الحاضر، وظهر الإيمان بنظرية التقدم على يد فوتنتل Fontenelle^(١) في القرن السابع عشر. يقول فوتنتل: « ليس هناك فرق بيننا وبين أجدادنا إلا أنهم سبقونا في ميدان العلم فكانوا المخترعين الأول، ولو كنا محلهم لقمنا بمثل ما قاموا به، ولو كانوا محلنا لعملوا مثل ما عمل، فنحن نجلبهم أكثر مما ينبغي كما سيجلبنا أبناؤنا فيما بعد ». وجاءت ثورة ديكارت الفكرية التي أعلنت استقلال الإنسان في أعماله مؤيدة لفكرة التقدم. ويضيف لينتز فيقول: « وعلى عمر الأيام سيصل الإنسان إلى درجة من الكمال لا تنصورها اليوم » ازدادت العناية بالتاريخ في العصور الحديثة لحركة النهضة وللكشف الجغرافي. درس الإنسانيون التاريخ، لأنه يفسر لهم

(١) هناك فصل جيد على فوتنتل في Bury: The Idea of Progress

Considerations on the Greatness and Decadence & (١)

(١٧٣٤) the poems